

الطريق والإنسان

صالح الهطالي

كنتُ يوماً راجعاً من المسجد بعد صلاة الفجر، وجاءني خاطرٌ جعلني أفكر في الطريق الذي أسير فيه، وما به من التواءات وانحناءات. وبدأتُ أقارن بين طبيعة الطريق وحياة الإنسان، فهداني المولى - سبحانه - إلى هذه النقاط:

■ يبدأ الطريق - حسب عرف الناس - من نقطة معينة، رغم أنه في الواقع ما هو إلا امتداد لطريق آخر. أيضاً، فإن الطريق قد ينتهي - حسب عرف الناس - في نقطة أخرى، رغم أنه قد يتصل بطريق آخر. كذلك، فإن حياة غالب الناس تبدأ من يوم ميلادهم، وتنتهي بموتهم. غير أن هناك من الناس من تبدأ حياتهم وهم في عالم الغيب؛ حيث إن مكانة آبائهم العلمية أو الاجتماعية قد تجعل الناس يتشوقون لهذا القادم الذي سيكون امتداداً لذلك العالم أو تلك الشخصية. أيضاً، فإن هناك من الناس من لا يموتون رغم دفن أجسادهم في الأرض. إنهم العلماء والعظماء الذين أنتجوا في حياتهم معالم تمتد بعدهم أجيالاً متلاحقة. وقد يأتي من أبنائهم أو طلابهم أو المتأثرين بفكرهم من يسير على نهجهم ويثقل أنوار فكرهم. وعلى هذا، فإن أولئك العلماء والعظماء هم حقيقةً يعيشون بيننا ويؤثرون فينا وفيمن يأتي بعدنا، رغم أنهم لا يتأثرون بنا، ويكسبون من الأجور والحسنات ما يفوق ما يكسبه الأحياء من أقراننا.

■ تبدأ معالم الطريق في التشكُّل من خلال ما تتركه أقدام الناس والدواب أو عجلات العربات من آثار على الأرض التي توجد عليها الطريق، وكلما زاد عدد المارة في تلك الطريق، وكانت الآثار أكبر وأصحاب الآثار أثقل وزناً، تشكَّلت معالم الطريق بسرعة أكبر. كذلك، فإن معالم حياة الإنسان تبدأ في التجلِّي بما يتركه الإنسان من بصمات في حياة الآخرين. وكلما كانت تلك البصمات أعمق وأكثر رتبة، وزاد عدد المنتفعين من تلك البصمات، ذاع صيتُ الإنسان أكثر وبطريقةٍ أسرع.

■ بعض الطرق الصخرية أو الطينية لا تتجلى معالمها إلا بعد زمن طويل، وبعد ارتيادها من قبل أعداد كبيرة من المارة. كذلك، فإن هناك من الناس من لا يشتهرون إلا بعد كم هائل من الإنجازات.

■ إن أيّ تراخٍ في تردّد المارة على الطريق قد يمحو تدريجيًا معالمه. كذلك، فإن أيّ تراخٍ في بذل العطاء وتوالي إنجازات المرء قد يؤدي إلى نسيانه بين الناس وانقشاع شهرته بينهم.

■ بعض الطرق تعثرها تقلبات الطقس من رياح وفيضانات وزلازل، وتتغير معالمها بسرعة كبيرة، وتحتاج في كثير من الأحيان إلى إعادة إعمار، وزيادة في الوطاء لتبقى معالمها واضحة جلية. كذلك، فإن هناك من الناس من يعيشون في بيئات تتقاذفها أعاصير الفكر، وتزلزل كيائها ما يستجدّ في العالم من وقائع وأحداث. مثل هؤلاء الناس يتأثرون كثيرًا بما يحدث حولهم، وتراهم في تذبذب واضح، وقد تؤدي بهم تلك الأحداث إلى اختفاء معالمهم بين الناس، ويحتاج هؤلاء إلى جهد كبير لإعادة إعمار أنفسهم، وزرع الثقة من جديد في نفوس المنتفعين بفكرهم وإنتاجهم.

■ بعض الطرق تُشَقُّ وتُهمَّد باستخدام طرق علمية ومعدات حديثة، ومثل هذه الطرق تُشَقُّ في وقت قصير، وتبقى صالحة للاستخدام لزمّن طويل دون الحاجة إلى صيانة تُذكر أو إعادة بناء. مثل هذه الطرق تكون أكثر تكلفة، وتحتاج إلى دراسة وتخطيط قبل وأثناء وبعد إنشائها، ولكنها -عادة- تكون أكثر مقاومة لتقلبات الطقس، وأعم منفعة لشرائح كبيرة من الناس والدواب والمعدات. مثل هذه النوعيات من الطرق تقابلها نوعيات متميزة من الناس، استطاعت أن تخطط لحياتها لتصل إلى مرحلة الإنتاج في وقت قصير، غير أن ذلك كلّفهم الكثير من المال والوقت والجهد، وذلك لاستخدامهم أحدث ما توصل إليه العلم من ابتكارات وتقنيات. وهذه الفئة من الناس أكثر صلابة من غيرها نظرًا للكيفية والأسس التي شكّلت حياتها بها، وهي أيضًا أديم نفعًا وأعم فائدة للناس.

■ في بعض الأحيان قد تقذف الرياح أو تجرف الأمطار في الطريق عوائق وأشواكًا لو تركت لأعانت المارة وأثّرت على جمال الطريق. وفي معظم الأحيان يقوم المارة أنفسهم بإزالة تلك العوائق ليعود للطريق رونقه، ويواصل الناس ارتياده. ويقابل مثل هذه العوائق في حياة الناس ما يقذفه البعض في أذهان الآخرين من أباطيل وأراجيف حول حياة وإنجازات بعض العلماء والعظماء. غير أنه

كثيراً ما تنطمس تلك المزاعم ويخبو أوارها عندما يتصدى لها من أدركوا الكنوز الثمينة والجواهر الفريدة التي تحتويها حياة أولئك العلماء والعظماء.

■ تُزَيَّن بعض الطرق بالأنوار الساطعة، وتُجَمَّل بتشكيلات رائعة من الورود والأشجار، ويتسابق العظماء ليعنونوها بأسمائهم وشعاراتهم، وتتسابق الشركات والمؤسسات لزيادة إنتاجيتها عن طريق وضع الإعلانات والدعايات على امتداد تلك الطرق، وكل ذلك لا يقلل من شأن تلك الطرق، ولا يزيد الناس إلا شغفًا في المرور عليها. يقابل مثل هذه الطرق أولئك العظماء من العلماء والمشاهير الذين أدرك الناس دورهم في بناء الحضارة الإنسانية، وقدَّروا مكانتهم في هذا الوجود، فتسابقوا للارتباط بهم؛ إما بنشر فكرهم أو بإقامة مؤسسات تُعرِّف الأجيال بعلومهم وإبداعاتهم. كذلك، فقد وَجَدَ بعض الناس النفعيين من شيوع صيت أولئك العظام ما حفَّزهم على استغلال أسمائهم وإنتاجاتهم لجني مصالح سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، وتصرفات مثل هؤلاء النفعيين لا تزيد أولئك العظماء إلا شهرةً ومحبةً بين الناس، ولا تزيد علومهم وفكرهم إلا إثراءً وإبقاءً.